

الفصل الحادى عشر

شعر الأنساب

تمهيد

يعد شعر الأنساب لوناً ثانياً من الشعر التعليمى لا يقل أهمية وأثراً فى تثقيف الشعب عن سالفه ، فإذا كان الأول يبشر بمقدم طلائع الفلسفة إذ يصور لنا الفكر ينمو شيئاً فشيئاً إبان بحثه عن نواميس الحياة الأخلاقية والاجتماعية ، فإن الثانى يشعرنا بمولد التاريخ وبروزه للمرة الأولى على مسرح الحياة الهيلينية يعالج تحديد النظام الزمنى ، ويحاول ربط الحاضر بالماضى ، ووصل الأبناء والأحفاد ، بالآباء والأجداد .

نشأ هذا الشعر كغيره من الأناشيد الدينية ، وبيان ذلك أنه لما كان شعر هوميروس - مع اشتماله على الحديث عن الماضى - لا يوضح لقرائه العناصر الأولى التى تكونت منها أسرة الأوليوس التى طالما ترددت فى قصيدتيه ولا يذكر لنا منشأ أبطاله ولا إلى أى الأسر ينتسبون . وبالإجمال لما لم يكن يعنى بالتحديد الزمنى عناية تسد حاجة العقل الذى بدأ يخرج من دور السذاجة إلى دور الرقى ، فقد أحس الهيلين بالحاجة إلى صوغ أساطيرهم الدينية وقصص آلهتهم وأبطالهم فى أسلوب تاريخى منظم ، ومزجها ببعض الأفكار الفلسفية المعقولة حتى تخرج من سذاجتها الأسطورية الأولى ، فحاولوا أن يشبعوا هذه الرغبة وقاموا فى ذلك بمجهود عظيم كان شعر الأنساب مبدأ طلائعه ، ومن ثم كانت محاولة مؤلف الثيوغونيا صوغ هذه الأساطير فى سلسلة منظمة تعتبر انقلاباً خطيراً وتجديداً جريئاً ، إذ أنه أزال الفوضى وأقر النظام والترتيب بين عالم الآلهة ، وقضى على تلك التعقيدات المظلمة ، بل التناقضات المعيبة التى كانت الأساطير إلى عهده مشحونة بها حين تحدثنا - إلى جانب

الآلهة الحاكمين كزوس وأسرته عن آلهة آخرين قد خلعوا من عروشهم ، وانتزعت منهم سلطاتهم كأورانوس وكرونوس ، ولكن لا يدرى أحد كيف ولا متى ، وكذلك حين تذكر لنا آلهة مشخصين إلى جانب آخرين لا يزيدون على أنهم معانٍ مجردة. فلما جاء هذا النوع من الشعر التعليمي الذي عني بوضع تاريخ دوحة الآلهة وضع كل شيء في موضعه ، وأوضح أسرار هذه المتباينات الظاهرية التي تشهد أعماقها بالترتيب المنطقي الوثيق ، والتماسك التاريخي المتين .

وأشهر قصائد هذا النوع من الشعر التعليمي قصيدة الثيوغونيا أو تاريخ الآلهة وقصيدة قائمة الأبطال .

فأما هذه الأخيرة فقد فقدت أكثريتها الغالبة ولم يبق منها إلا قطع ناقصة وتنف مشوهة ، وقد أرجع النقاد تاريخ هذه القائمة إلى القرن السابع قبل المسيح ، وسنتحدث عنها فيما بعد .

أما الثيوغونيا فهي سابقة على ذلك التاريخ ، إذ قد أرجعوها إلى نهاية القرن الثامن ، وقد بقيت كاملة ولم تُعفَّ الأيَّام كما عُفَّت القصيدة الأخرى .

(١) الثيوغونيا أو أسرة الآلهة

١ - وقفة تحليلية

تشبه الثيوغونيا شعر هز يودوس في أنها موجهة إلى الريفيين ، وأنها اشتملت على كثير من نصائحهم ، وقد دفع هذا الشبه فريقاً من النقاد إلى القول بأنها كلها لهز يودوس فعزوها إليه ، ولكن الحقيقة التي يدين بها النقاد المحدثون الآن هي أن هز يودوس قد أنشأ منها جزءاً لا يستهان به .

وأياماً ما كان ، فإن هذه القصيدة تتكون من ألف ومائتي بيت ، ولكن تقسيمها

— على النحو الذى سلكه النقاد بإزاء « الأعمال والأيام » — غير ممكن إلا بالنسبة إلى مقدماتها التى يتيسر فصل بعض أجزائها عن البعض الآخر فى سهولة .

ومع ذلك فمن الممكن وضع منهج واضح محدد لهذا الإحصاء الطويل الذى سُجل فيها ، تتميز به العصور المختلفة لعهود الآلهة ، وإليك هذا المنهج فى خطوطه الرئيسية أو هذا الموجز الخاطف لتلك القصيدة الجامعة .

يفتح المؤلف درته هذه بمقدمة رشيقة تشغل مائة وخمسة عشر بيتاً يدعو فيها عرائس الشعر إلى معونته مستلهاً منهن العلم وحسن التعبير .

وبعد ذلك يحدثنا فيما بين البيت السادس عشر بعد المائة والثانى والثلاثين بعدها عن نشأة الكون فينبئنا بأنه لم يكن فى مبدأ الوجود سوى الموجودات الثلاثة : خاؤوس أى الفراغ «Chaos» وغايا أى الأرض «Gaia» وإيروس أى الحب «Eros» . فمن الخاؤوس نشأ الليل ، ومن الليل نشأ النور ، ومن غايا نشأ أورانوس أى السماء Ouranos وپنتوس أى البحر Pontos وأما إيروس فلم ينسل شيئاً .

وفما بين الثالث والثلاثين بعد المائة والعاشر بعد المائتين يصور لنا المؤلف ما يدعوه بالعصر الثانى أو حُكم أورانوس ، فيخبرنا بأنه من اجتماع أورانوس وغايا قد نشأ التيتانوس مثل أكيانوس ، Okéanos وهيبيريون Hypérion وكريوس Krios وكوثيثوس Koios وكذلك نشأ من هذا الاجتماع كل الككلوبوس Kiklopos وفى النهاية كرونوس Kronos بيد أن هذا الأخير لا يلبث أن يثور — مع جميع التيتانوس — بوالده فيقهره ويبتزه ويكرهه على أن يتخلى له عن عرش الكون .

وفما بين البيت الحادى عشر بعد المائتين والثانى والخمسين بعد الأربعمئة يصف لنا حكم كرونوس ، ثم يرسم لنا كيف أنه مجتمعاً مع ربا ابنة السماء وإلهة الأرض — ينسل جيلاً آخر من الآلهة كزوس وهيريه وهاديس وپوسيدون .

وفما بين البيت الثالث والخمسين بعد الأربعمئة والبيت المئتم للمائتين بعد الألف ، وهو

نهاية القصيدة يصور لنا المؤلف حكم زوس فينبئنا أنه لا يكاد ينتصر على والده ويظفر منه
بعرش الكون حتى يتألب عليه جميع التيتانوس ، والكائن المزعج « تفيوس » فلا يلبث
أن يدرهم وينفرد بالسلطان . ومنه ومن زوجته ومن محظيات متباينات ينشأ أبولون ،
أورتيميس ، وعرائس الشعر ، وأريس ، وهرميس ، وهيفستوس ، وديونيسوس ومن إليهم .
وأم ما يلفت النظر في هذا الصدد هو تلك الفكرة الأساسية التي تبدو واضحة من
مبدأ القصيدة إلى نهايتها كأنها الهدف الأقصى الذي يرمى إليه المؤلف ، وهي أن حكم زوس
قد أنشأ في الكون عصرًا جديدًا لا عهد للعالم به من قبل ، وهو عهد النظام والعدالة ،
ولا ريب أن هذه الملاحظة الدقيقة كانت بمثابة برهان قوى جديد يؤيد القول بأن
الأكثرية الغالبة من هذه القصيدة هي من وضع هزودوس لأن هذا المبدأ هو عينه الذي
يسود جميع جوانب « الأعمال والأيام » والذي لا يدع أية فرصة تمر به دون أن يدعو دعوة
حارة متحمسة إلى الإيمان الراسخ بعدالة حكم زوس .

هذا هو الموجز الخاطف للثيوغونيا ، والآن إليك إجمالها وتحليلها في شيء من البيان :
تتألف هذه القصيدة من عدة مقطوعات متساوية القيمة تقريبًا تشغل كل واحدة منها
بفرع من دوحة الأوبوس تروى تاريخه وتبين أصله ، وتتبع تطوراته وتسرد مزاياه
واختصاصاته .

يبدأ المؤلف أو المؤلفون هذه القصيدة بمقدمة عدد أبياتها مائة وخمسة عشر بيتًا كما أسلفنا ،
وأول ما يلاحظه القارئ في هذه المقدمة هو تفككها إلى حد يمكن معه تقسيمها إلى ثلاثة
أقسام مختلفة لا يبعد أن يكون كل واحد منها من وضع شاعر بعينه ، فإذا تصفحنا القسم الأول
— ويبدو أنه أقدمها — ألفينا المؤلف يظهر على المسرح وينبئنا بغايته فيحدث إلينا قائلًا :

« لنبدأ بالثناء على عرائس الشعر « الهيليكونيات » عرائس الشعر اللواتي يقطن جبل
الهيليكون الإلهي الرفيع واللواتي يرقصن بأقدام خفيفة حول النبع المظلم ، وبالتقرب من
هيكل ابن كرونوس القوى^(١) . . . هن اللواتي ألهمن هزودوس في الماضي أنشودة نبيلة

(١) انظر الثيوغونيا من رقم ١ الى ٤ .

بينما كان يرعى حملانه في سفح الهيليكون الإلهي . أما أنا فهاك في أية عبارة تحدثت إلى عرائس الشعر الأولمپوسيات ، بنات زوس الذي بيده الترس : « أيها الراعى غير المشذب ، والإنسان المنحط الذي لا هم له إلا الأكل . نحن نعرف أن نقول كثيراً من الأشياء الخيالية التي تشبه الحقيقة ، ولكننا نعرف أيضاً - حين نريد ذلك - كيف نصرح بالحقائق » .

هكذا تكلمت بنات زوس العظيم ، تلك الإلهات ذوات اللهجة العذبة ، وعلى أثر ذلك منحنى كصولجان غصناً مورقاً من الغار كن قد قطعته لساعته ، وفي الوقت عينه أنشأن بوساطة نفثاتهن الأناشيد الإلهية لكي أسرع في التغنى بالمستقبل والماضى ، وأمرننى أن أصوغ ساسلة الآلهة في أناشيد ، وأن أترنم بهن أنفسهن منذ الآن وفي المستقبل دون انقطاع^(١) نحيى إليكن يا بنات زوس ، إننى أسألكن أن تمنحنى ما يجعلنى أروق سامعى إذا ترنمت ، وأن تمجدن معى سلسلة هذه الدوحة المقدسة للآلهة الخالدين الذين نشئوا من الأرض والسماء المزدانة بالنجوم ، والذين هم أبناء الليل المظلم ، والذين ألفت بهم أمواج البحر الملح إلى هذا العالم^(٢) .

لا ريب أن القارئ يشعر إذ يقرأ هذا الجزء من المقدمة أن مؤلفها شاعر قديم اتخذ هز يودوس نموذجاً له يسير على نسقه ، ويزعم أنه كلف من قبل عرائس الشعر بوضع تاريخ الآلهة كما كانت الأساطير تروى أن هز يودوس قد كلف من قبلهن بوضع التعاليم الأخلاقية والزراعية ، فإذا أضاف هذا الشاعر المزعوم القائمة الدينية إلى القائمتين اللتين أنتجهما هز يودوس ، فقد تم للإنسانية ما تريد من خير وسمو^(٣) .

(١) من رقم ٢٢ إلى ٣٤ .

(٢) من رقم ١٠٤ إلى ١٠٧ .

(٣) لما كانت ترجمة الأستاذ كروازيه لهذا النص مشتملة على عبارة « هن اللواتي ألهمن هز يودوس في الماضى » وعلى عبارة « أما أنا » الخ ولما كانت هاتان العبارتان تدلان دلالة واضحة على أن مؤلف هذا القسم من مقدمة الشيوغونيا هو شاعر آخر غير هز يودوس ، فقد كان من الطبيعى أن يرى الأستاذان كروازيه وهيجير هذا الرأى ، ولكن الأستاذة : بيرون ، ومازون ، وهمبر ، وبرجن يرون أن مؤلفه هو هز يودوس نفسه ، ولا يترجون تبك العبارتين السالفتين كما ترجمهما الأستاذ كروازيه .

غير أن شاعراً آخر جاء فيما بعد فأضاف إلى المقدمة فكرة خيالية اقتطع عناصرها من الأبيات السالفة ، ومجملها أن عرائس الشعر هن اللواتي أنشأن هذه القصيدة وجعلن يترنمن بها . وقد سجل هذا الخيال في خاتمة ألحقها بالقصيدة ، ولكن العصور التي تعاقبت بعد هذا الشاعر نقلت هذه الخاتمة وأضاعتها إلى المقدمة ، وهاك شيئاً مما جاء فيها تسجيلاً لفكرته :

« في أعلى قمة الهيليسكون كونت عرائس الشعر جوقة الرقص الرشيقة ذات الحركات النشيطة الفاتنة ، ومن هذا المكان عينه قد ارتحلن متزملات بالضباب ، واتجهن من خلال الليل مرسلات أصواتهن الساحرة في الهواء ، وجعلن بمجدن زوس حامل الترس ، وهيريه الأبدية إلهة أرجوس ذات الخذاء الذهبية ، وابنة زوس أثينية ذات العينين الزرقاوين ، وفيبوس أبولون ، وأرتيميس ذات السهام السريعة ^(١) . . . »

ها هو ذا ما كانت عرائس الشعر قاطنات الأولمپوس تترنمن به في الليل ، عرائس الشعر التسع ^(٢) ، بنات زوس العظيم :

« كليو » و « أوترپيه » و « ثاليا » و « مليومينيه » و « ترپسيخوريه » و « إيراتو » و « پولمينيا » و « أورانيا » و « كليوييه » (انظر الصورتين في الصفحة المقابلة) وهذه الأخيرة هي أنبل الجميع لأنها هي التي تتصل بالملوك الذين يحوطهم الإجلال التام والذي هو من بين الملوك منحدر من أصلاب الآلهة هو الذي تشرفه بنات زوس العظيم ،

(١) انظر البيت الخامس وما بعده من مقدمة الثيوغونيا .

(٢) هن الموسيه أو عرائس الشعر ، وهاك اختصاص كل واحدة منهن :

١ - كليو « Clio » عروس التاريخ . ٢ - أوترپيه « Euterpe » عروس الموسيقى والشعر الغنائي . ٣ - ثاليا « Thalia » عروس المهازيل . ٤ - مليومينيه « Melpomène » عروس المأسى . ٥ - ترپسيخوريه « Terpsichorè » عروس الرقص والترنم . ٦ - إيراتو « Erato » عروس الرأى . ٧ - پولمينيا « Polymnia » عروس الشعر الترنمى . ٨ - أورانيا « Urania » عروس الفلك . ٩ - كليوييه « Calliopè » عروس الشعر الحماسى والفصاحة .

وهو الذى ينظرون إليه بحماس منذ ميلاده ويسكن على لسانه قطرات من الندى العذب
الشهى فتساب من فمه كلمات حلوة كالشهد^(١) كانت عرائس الشعر إذ ذاك
يتجهن من هيليكون إلى الأولمبوس ويرسلن أصواتهن الخالدة تجلجل فى رشقة فتدد
الأرض المظلمة على بُعد أناسيدهن ويرتفع تحت أقدامهن ضجيج عذب متسق إبان اتجاههن
إلى جوار والدهن ، وهذا الأخير هو الإله الذى يحكم فى السماء وهو سيد الرعد والصاعقة



[الصورتين ١٩ و ٢٠]
هما رسم بارز ، وقد وجدتا
على جانبي قاعدة أحد
التماثيل من صنع بركستيلوس
Praxitélos أعظم مثالي
الهيلين على الإطلاق ، وعما فى
متحف أثينا الوطنى وتتلان
سناً من عرائس الشعر . وعن
أهم ما يلحظه النقاد على هاتين
الصورتين هو المقدرة الفائقة
على إبراز تناسل الرخام فى
الأعضاء والملابس وإبداء
الفروق بين مظاهر العرائس
[واختصاصاتهن] .



ذات البروق المزعجة ، وهو القوى الذى انتصر على والده كرونوس والذى أنزل الآلهة منازلهم وأعطى كل واحد منهم مرتبته فى عدالة وأقره فى مكانته «^(١) .

يتبين من هذه الأبيات أن مؤلفها كان متصلاً بالملوك والأمراء يفتش شعره بين أيديهم وتحت أقدامهم فأجأه ذلك إلى الزلفى ، واضطره إلى اعتبار الملوك من عنصر أسى من عناصر البشرية ، نعم إن هذا الاعتبار لم يكن غريباً فى تلك العصور ، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن هزيرودوس وأمثاله ممن لم تلجئهم ضرورات الحياة إلى الملئ لم يكونوا فى حاجة إلى هذا النوع من الشعر كما أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن حياة هزيرودوس .

أما الجزء الثالث من هذه المقدمة فهو أنشودة مستقلة عن سابقتها يبدوها مؤلفها بالتغنى بجمال عرائس الشعر والترنم بحسن أصواتهن ، وبالسحر الذى تحدثه فى نفوس الآلهة ثم بمدح الآلهة والأبطال والعمالقة .

ويرى الأستاذ كروازيه بحق أن هذا الجزء الأخير من المقدمة كان يستعمل حينما كانت قائمة الأبطال التى فقدت تنشد مع الثيوغونيا .

٢ — بدء الوجود

بعد هذه المقدمة يبدأ المؤلف قصيدته فيقدم إلينا سلسلة متسقة الحلقات تضم بين طرفيها آلهة السماء ، وآلهة المياه ، وآلهة الأرض ، وآلهة الجبال ، وآلهة الماضي ، وآلهة الحاضر . وبالإجمال آلهة جميع الأزمان والأمكنة على طول الدهور وسعة المسافات . والآن إليك كيف يبدأ سلسلة هذه الدوحة الإلهية ويسير فيها على نسقه المنظم المتزن .

فى مبدأ الكون كان ثلاثة موجودات لم يتجاوز الفكر الهيلينى حدودهم ولم يذهب إلى ما هو أبعد منهم لأنهم أوائل الكائنات جميعها وهم : خاؤوس^(٢) أو الفراغ ، وغايا أو الأرض ، وإيروس أو الحب .

(١) أنظر الثيوغونيا من رقم ٦٨ إلى ٧٤ . ومن الطبيعى أن نرى الترتيب هنا مقلوباً ما دام أن أحد الشعراء القدماء قد نقل قائمة المقدمة من موضعها وأقعها فى وسطها كما أشرنا إلى ذلك .

(٢) الخاؤوس هو فيما ترى المعاجم خليط أولى من جميع عناصر الحياة ، وهو أساس وجود الكون . وفى رأى بعض الاصطلاحيين من المتفلسفة هو المادة قبل تصورها أى الهوى ، وفى رأى البعض الآخر هو الفضاء أو الخلاء .

فأما خاؤوس ، فهو لم ينجب إلا إبان وقت قصير ، ولذا لم ينسل إلا الليل الذى أنسل
النور ، وأما الحب فهو لم ينجب أصلاً ، وإنما غايًا هى الوفيرة الإخصاب والعظيمة الإنجاب .
ومن إنجابها وإنجاب خاؤوس ينشأ العالم الخارجى فتتألف الكتل الأرضية ، وينبلج
« نكس » أى النور من « إرييوس » أى الظلام . ويمتد « أورانوس » أى السماء فوق
الجبال الناشئة ويستريح « پنتوس » أى البحر فى مستقره العميق .

وإذ ذاك تبتدى السلسلة الهائلة التى تؤلف حلقاتها الكون ، فينشأ من اجتماع
أورانوس وغايًا التيتانوس والككلوبوس والهيكتونخيروس ، وكلهم من العماقة أو من
الكائنات البشعة المرعبة ، وبعد ذلك يروى لنا المؤلف قصة ثورة التيتانوس ضد والدهم ،
فيحدثنا أن التيتانوس كانوا أكثر جميع الأطفال الذين ولدوا من اجتماع غايًا وأورانوس
فضاعة ، وقد مقتهم والدهم ، فكان لا يكاد أحدهم يجرى إلى العالم حتى يسرقه وينزعه من
عالم النور ويخفيه فى بطن غايًا العميق . وكان يستمتع بفعله القاسى ، وفى أثناء ذلك كانت
غايًا العظيمة تئن معذبة من فداحة الحمل الذى بين أحشائها ، فدبرت حيلة مناقفة خبيثة ،
فأنتجت معدنًا صلبًا لامعًا وصنعت منه منجلاً كبيراً ، وباحت بمشروعها لأولادها وقالت
لهم وهى مفعمة بالغضب لتشجعهم : « يا أولادى ويا أبناء والد قاس استمعوا إلى نصائحى
فسنتقم منه لأفعاله الرديئة ، لأنه هو الذى بدأ بالسوء » هكذا تكلمت ، وكان الجميع
يضطربون فلم يجرؤ أى واحد منهم على الحديث ، وكان كرونوس العظيم ذو العقل المحتال
والملء بالشجاعة هو وحده الذى أجاب أمه المحترمة قائلاً : « أماء ! سأكون أنا - وأتعهد
بذلك - الذى سينفذ ماتبيتينه ، فليس لدى أى اعتبار نحو والد غير جدير بهذا الاسم ، لأنه
هو الذى بدأ بالشر » . على هذا النحو تكلم كرونوس فاغتنبت غايًا العظيمة فى قلبها وأمرته
أن يكمّن لأبيه ، ووضعت فى يده المنجل القاطع ، وأعدت للنجاح كل شيء ^(١) .

وبعد هذا النص يروى لنا المؤلف فى إيجاز نتيجة هذه المؤامرة وهى جب كرونوس
عضو التناسل من والده . وعلى أثر ذلك يسرد لنا أسماء التيتانوس ، وهم « أكيانوس المحيط »

(٢) انظر الآيات من رقم ١٥٤ إلى ١٧٥ من الثيوغونيا .

و « إيبريون » و « كريوس » و « كويئوس » و « ياپيتوس » و « كرونوس » وهذا الأخير هو أم إخوته وأعظمهم خطراً ، إذ هو الذى سينسل كل آلهة الهيلين العظماء الذين تنوج بهم الأساطير .

ولا تكاد أسرة كرونوس تأخذ مكانها على مسرح الوجود حتى يتبدل فى بيئة الآلهة كل شئ ، فيخلف الآلهة البدائيين الذين لم يكن لهم حتى الآن هياكل ، ولم تكن الضحايا والقرايين تقدم إليهم ، ولا الأدعية تصعد نحوهم ، ولا الطقوس تقام تمجيداً لأسمائهم ، آلهة آخرون يستمتعون من الشعب الهيلينى بكل تلك العقائد والتقاليد ، ولكن مؤلفنا لا يكاد يذكر عن ذلك شيئاً ، لأن بغيته هى تعقب أسرة الآلهة جيلاً بعد جيل .

يرى لنا بعد ذلك أن كرونوس يطغى فيسجن جميع الكيكلوبوس والهيكاتنخيروس فى الظلام ، ولا يبقى من إخوته فى عالم النور إلا التيتانوس ثم يسجن أولاده إلا زوس تنقذه والدته « رهيا » وتنشئه فى جزيرة كريت على غير علم من والده ، وإذ يتعرع ويشهد ساعده بتمرد على والده فيخلص أخويه : « هاديس » و « بوسيدون » ثم يحرر الكيكلوبوس فيقدمون إليه - اعترافاً بحميله - الصاعقة التى بفضلها ينتصر على والده ويسلبه السلطان ويبسط سيادته على العالم .

غير أنه لا يكاد يحرز هذه السيادة حتى يهب أربعة من التيتانوس هم : « أتلاس » و « مينوتيس » و « بروميس » و « إبيميسوس » أولاد « ياپيتوس » فيثوروا به ويعلموا له العداة فلا يسعه إلا أن يسلط عليهم عقابه الشديد ، ولكن المؤلف ينبئنا أن هتأ حادثين أساسيين هما اللذان ثبتا عرش زوس وقضيا على جميع الفتن والدسائس والمؤامرات التى كانت تحاك حوله : الأول حادث ثورة جميع التيتانوس أولاد أورانوس وأنسلم ، تلك الثورة التى انتهت بسحقهم جميعاً . والثانى حادث إبادة العملاق البشع تيفوؤوس ، ولا يحدثنا المؤلف عن السبب الذى تشتعل من أجله ثورة هؤلاء التيتانوس ، ولا يصف لنا الحوادث التى تقع فى السنين العشر الأولى من هذه الحرب ، وإنما هو يصور لنا زوس فى السنة العاشرة

منها يخلص الهيكلان تثنخيروس الثلاثة الذين أسره كرونوس وعجم : « بريرئوس » و « كوتوس » و « جيجيس » أولئك العالقة الذين لكل واحد منهم مائة ذراع وخمسون رأساً . وهنا تعقد بينهم وبين زوس معاهدة يشتعل على أثرها لهيب المعركة الحاسمة التي يساهم فيها هو شخصياً فيرسل الصاعقة من فوق قمة الأوليمبوس تهز كل شيء وتحدث في السكون اضطراباً عاماً تكون نتيجته إتمام النصر له ولحفائمه وتكبييل التيتانوس وإلقاءهم في أعماق طبقات الجحيم . وهاك ما يصور به المؤلف هذه المعركة الهائلة :

« كان الجميع في ذلك اليوم يهتفون بالحرب : الآلهة والإلهات وأبناء كرونوس ، وأولئك المحاربون الشاخص الأنوف غير القابلين للانزهاج ذوو القوة الهائلة الذين أتى بهم زوس من أعماق « إيريبوس » ومن هوى الأرض . كانت مائة ذراع تبرز من كتفي كل واحد منهم ، وخمسون رأساً ترتفع من فوق أعضائه القوية ، وقد وقف كل أولئك مسلحين



[الصورة رقم ٢١ هي رسم بارز ، وقد وجدت في حفائر مدينة برغامنا بآسيا الصغرى ، وهي تمثل تلك المعركة الخرافية التي اختلط حابلها بنابلها في معركة العالقة التي عرفها المؤلف التيوغونيا كيف يصورها أبديع تصوير]
بعضاً من الصخور في وجه التيتانوس الذين كانت في ألقهم ملتحمة متماسكة ، وكانت غاية الفريقين هي إظهار ما تستطيعه قوة أذرعتهم . وإنهم كذلك إذ البحر الهائل والأرض

الواسعة يُجلبجلان فجأة بضجيج مرعب ، والسماء تضطرب وتئن والأولمپوس الرفيع يهتز من أساسه حينما يصطدم الآلهة ، بل إن ضجيج التصادم المروع والضربات العنيفة يخترق أعماق الترتاروس المظلم .

كانت الرجوم القاضية تتطاير من كل جانب ، وكانت أصوات الفريقين المتحمسين للمعركة تصطك بالسماء ذات النجوم ، وكانت الصرخات الهائلة تصعد من ميدان القتال ، ولم يكبت زوس وقتاً طويلاً الغضب الحربى الذى كانت نفسه مليئة به ، فلم يلبث أن أظهر كل قوته وقذف بالرعد من قمة الأولمپوس ، من أعلى السماء ، فكانت الصواعق الملتهبة تتقاطر بضجيجها دون انقطاع من يده التى لايعتورها العناء ، وكانت الأرض الخصبية تحترق مرتعدة ، والغابات الواسعة تنفجر ، وكان كل شيء يغلي : الأرض كلها ، والبحر الهائل ، فينتشر حول التيتانوس بخار خناق وهواء ملتهب ثم يبهز لمعان الصاعقة أعينهم الجريئة ويعميها ويمتد الحريق حتى يصل إلى الخائوس ، وكانت الأرض والسماء - فيما ترى الأعين وتسمع الآذان - كأنهما تمتزجان ، إحداهما تهتز فوق قاعدتها ، والأخرى تهوى من عليائها .

..... استمر القتال زمناً طويلاً بحرارة عنودة ، لكن « كوتوس » و « بريريوس » و « جيجيس » قد قاموا فى الصف الأول بمعركة مزعجة ، فكانت ثلثمائة صخرة تلقى مرة واحدة بأذرعهم القوية بدون انقطاع على التيتانوس وتخفيهم كسحابة مظلمة . وفى النهاية قهروهم رغم شجاعتهم المتعجرفة ، وكبloom بأغلال قاسية ، وأرسلوهم إلى أعماق طبقات الأرض .

..... هناك فى ظلام سميك وفى وسط بخار خبيث الرائحة ، وفى آخر حدود العالم دفن التيتانوس بأمر ملك السماوات^(١) .

بيد أن زوس لا يكاد يقضى على هذه الثورة وينعم بالهدوء حتى تنفجر ضده ثورة أخرى تعرض عرشه وذاته للخطر أكثر من الأولى . ومجملها أن غايا تنجب عملاقاً بشعاً مزعجاً وهو « تيفوؤوس^(٢) » فلا يكاد يبرز إلى الحياة حتى يتمرد على زوس ، فيبادر هذا

(١) رقم ٦٦٦ وما بعده .

(٢) تيفوؤوس ، هو منشىء الرياح المشئومة .

الأخير إلى إخضاعه ثم إلى إبادته . وبهذين الانتصارين يتثبت سلطان زوس ويرسخ عرشه ،
ويقبض على نواصي الأمور في الكون كله بيد من حديد .

وبعد هذا يقص علينا المؤلف كيف نشأ سكان الأولمپوس الحاليون فينبئنا بأن زوس
يجتمع على التعاقب مع « ميتيس » Métis ، ثم ثيميس Thémis بنة أورانوس وهى إلهة
العدالة التى تزن كل كبيرة وصغيرة بالقسطاس المستقيم (انظر الصورة رقم ٢٢ فى صفحة ٢٠٦)
ثم مع أورينوميه « Eurynomé » ثم ديمتير « Deméter » إلهة الزراعة وهى ابنة كرونوس
أنجبها من ريا ثم مع منيموسينيه « Mnémosynê » إلهة الذاكرة ، وهى ابنة أورانوس
وشقيقة ثيميس إلهة العدالة الأنف ذكرها ثم مع ليتو « Leto » ابنة التيتانوس كويوس
وأخيراً هيريه بنة كرونوس فينجب منهن إلهات الفصول الأربع ، وإلهات الآجال
الثلاث ^(١) ، وهن كلوتو « clotho » ولاخيسيس « Lachésès » وأتروپوس « Atropos »
وإلهات الرشاقة الثلاث ، وهن : أغلائييه Aglaé وثاليا Thalia وأفروسينيه Euphrosinê .
ويرسيفنيا ^(٢) Perséphonê والموسيه Les Muses أى عرائس الشعر التسع ^(٣) اللواتى
أسلفنا الحديث عنهن . وأپولون ^(٤) ، وأرتيميس ^(٥) ، وهيبه ^(٦) Hébé وأريس ^(٧) Arès
وإيليثيه ، وفيما عدا ذلك فإن زوس ينجب وحده بالاس أثينيه ، إذ تنجىء هذه الأخيرة إلى
عالم النور بطريقة غير طبيعية تفتح رأس أبيها وتخرج منه مدججة بسلاح الأزلية والأبدية ،
وإنما تشاء الأساطير الهيلينية أن تخرج أثينيه من رأس أبيها لتشير إلى أن منشأها وهو الدماغ
هو مكان الحكمة وماوى التعقل والذكاء ، وكذلك هيريه تنجب وحدها هيفستوس ^(٨) .

(١) هن ثلاث أخوات وكل إلهن تحديد الآجال البشرية بواسطة نسيج رمزى ، فالأولى وهى « كلوتو »

تولى غزل الحياة ، والثانية وهى « لاختيسيس » تقوم بنسجها ، والثالثة وهى « أتروپوس » تقطع خيوطها .

(٢) پرسيفنيا أنجبها زوس من ديمتير .

(٣) أنجبهن من منيموسينيه ، وقد سبق الحديث عن اختصاص كل منهن .

(٤) إله الشمس والفنون الجميلة .

(٥) أرتيميس إلهة القمر والصيد وقد أنجبها زوس هى وشقيقها أپولون من ليتو .

(٦) هيبه هى إلهة الشباب .

(٧) أريس إله الحرب ، وقد أنجبه هو وشقيقته من هيريه .

(٨) هيفستوس هو إله الحدادة وهو غاية فى الدمامة والقبح وتشوه الحلقة .



[الصورة رقم ٢٢
مأخوذة عن تمثال موجود
في المتحف الوطني بأثينا ،
وهو من صنع المثال الهليني
خيرستراتوس الذي عاش
في القرن الثالث قبل المسيح ،
وتمثل ثيميس إلهة
العدالة] .

إلى هنا - فيما يظهر - تنتهى القصيدة البدائية وتبدأ المائة بيت الأخيرة المنتحلة ، والتي تنبه إلى انتحالها نقاد الإسكندرية فجحدوا صدور بعضها عن مؤلف الثيوغونيا والتي تسرد لنا تاريخاً مظلماً مختلطاً وتحدثنا عن بعض البشريات اللواتى افتتن بهن الآلهة كالنساء الآتية أسماؤهن (أ) « سيميليه Sémélè » بنته كذموس ملك ثيبا التي يكلف بها زوس فينجب منها ديونيسوس Dionysos إله الخمر (ب) ألكيمينيه Alcmenè زوجة أنفريون ملك ثيبا ويعشقها زوس أيضاً فتسلد له « هيركليس » Héraclès (ح) « أريانيه » Arianè ابنة مينوس ملك كريت (د) مَديا Médéa الساحرة . وأخيراً يختتم المؤلف قصيدته بقائمة يسرد فيها أسماء الإلهات اللواتى يجتمعن برجال من البشر فينجبن منهم أبطال الهيلين ، فيشعرنا بأنه قد بدأ يترك سلسلة الأوليوس لينشغل بتاريخ الأناسى .

٣ - كيف تكونت الثيوغونيا :

أسلفنا أن نسبة مقدمة الثيوغونيا موضع ريبة شديدة دار حولها جدل عنيف بين النقاد أما القصيدة نفسها فإن الذى نستطيع أن نقرره بإزائها بعد هذه الطوفة العاجلة التى طفناها بها معك هو أنها - إذا استثنينا المائة بيت الأخيرة وبعض منتحلات أو استشهادات أخرى - لمؤلف واحد ، لأن الوحدة والتناسك يسودانها تمام السيادة كما هو الشأن فى كل سفر يؤلفه كاتب أو شاعر واحد ، ويضع نصب عينيه غاية معينة يشملها بعنايته من أول الكتاب إلى آخره .

وفى الحق أن إجماع النقاد المحدثين يكاد ينعقد على أن أكثريتها الغالبة هى لهزيودوس وإن كان ذلك لا يمنع من اشتغالها على انتحالات ذات بال ، ومن أن بها عدداً غير قليل من الأبيات قد زج به بين مقطوعاتها زجاً دون أية صلة تربطه بما قبله أو ما بعده ، وأكثر من ذلك أن بعض الباحثين قد انتبهوا إلى الإيقان بأن طائفة من شعر هوميروس نفسه قد أقحمت بين أبياتها إقحاماً ولم يستبعدوا أن يكون ذلك من قبَل أولئك المقحمين على سبيل الاستشهاد

أو التشبيه دون أى قصد إلى الانتحال أو تزييف الحقائق التاريخية . ولعل من هذا ما أورده المؤلف بعد وصفه خيميرا Chimæra إذ ينقل لنا من الإلياذة في تصوير هذا الكائن المزعج ما نصه :

« إن له مقدم أسد ومؤخرتين ووسط معز ، وهو يقيء زوابع من اللهب ^(١) » .

ومع هذا كله ، أو رغم هذا كله ، فإن النقاد المحدثين يعزون القصيدة إلى مؤلف القسم البدائي من المقدمة ويرجحون أن هذا المؤلف هو هز يودوس كما أشرنا إلى ذلك . وهم يعتمدون في حكمهم هذا على تلك الروابط المتينة التي تصل أجزاء القصيدة وصلا محكما وعلى ذلك التقابح المنطقي الذي يجتازها من مبدئها إلى منتهائها ، وعلى الصنعة والأسلوب اللذين يجعلان الشبه بينها وبين « الأعمال والأيام » قويا متماسكا .

على أن أولئك النقاد يستثنون من هذا الحكم المائة بيت الأخيرة التي تتميز بطابع أكثر جدة وتأخرا في الزمن عن بقية القصيدة .

ويرى الأستاذ كروازيه أن هذه القصيدة قد اشتملت على منتحلات أخرى غير المائة بيت المشار إليها كنظر تدخل زوس في حرب الهيكاتنخيروس والتيتانوس الذي لا يظهر له - فيما يرى هذا الأستاذ - أى أثر على كبير في مصير تلك الحرب ، وإنما أضافه مؤلفه لينقذ به موقف زوس الذي رأى أنه مخجل بسبب عدم مقدرته على الخروج من الورطة بمجهوده الشخصي ، فأراد أن يجعل دور الصاعقة ذا أثر فعال في المعركة . ومن هذه المناظر المنتحلة - فيما يرى أيضا - منظر سجن التيتانوس في مكان لا اسم له يسهب الشاعر المتأخر في وصفه ، وينسى أن القصيدة نفسها قد نصت على أن التيتانوس قد سجنوا في الترتاروس ، وليس ذلك عجيبا ، فهذا الناحل كغيره من ناحلي بعض أناشيد الإلياذة والأوديسا الذين كانوا يأتون في منتحلاتهم بما يناقض القصيدة البدائية ، لأنهم نسوا محتوياتها ، أو لأنهم لم يكلفوا أنفسهم عناء استيعاب ما فيها كما أشرنا إلى ذلك في مواضعه مرارا .

(١) انظر البيتين ١٨١ و ١٨٢ من الأنشودة السادسة من الإلياذة .

ومما لا ينبغي إهماله هنا أن ثبت أن المؤلف مدين بهذا التتابع للتين المنظم لذلك القانون الوحيد الذى هو عين النظام الزمنى والذى يقتاد ويرتب - دون أدنى ضعف ولا تخاذل - ذلك الإحصاء الهائل الذى يشمل دوحة الآلهة ، فالمؤلف ينتقل بنا من عهد إلى عهد مبتدئاً دائماً من أكبر أفراد كل طبقة منتبهاً إلى أصغرهم ، وعندما يفرغ من إحصاء إخوة الطبقة الواحدة يعود إلى كل فرد منهم باعتباره رئيساً لأسرته الخاصة فيحصى نسله ثم يتجه إلى من يليه من طبقته ، وهكذا يمر بشرادم عدة من الآلهة دون أدنى اختلاط أو اضطراب ، فإذا سائرناه فى خطته - ولا مناص لنا من ذلك - ألقيناه ينحدر من الأجداد والآباء إلى الأبناء والأحفاد انحداراً طبيعياً لا بأس به ، وهو فى ذلك لا يبالي أن يعيد اسم الإله عدة مرات ، فيذكره ابناً فزوجاً فوالداً فجداً ، وسر ذلك أنه كان يهدف إلى وضع قائمة دقيقة مضبوطة بأسماء الآلهة وبيان منشأ كل منهم وصلته البنوية أو الأبوية أو الأخوية أو الزوجية بغيره من أفراد أسرة الأوليوس ، وهو فى كل هذا يحترم الترتيب الزمنى ، ويخضع لتتابع العصور ، فنجم عن ذلك المنهج أن جاءت قصيدته قائمة بأسماء يتلو بعضها بعضاً ، وأسر يخلف طارفاً تليدها ، وندرت فيها القصص المسهبه والروايات المطنبة .

وإذا كان من حقنا أن نعنى بتحليل كل مؤلف وباستكناه منزلته الأدبية من خلال منتجاته ، فقد وجب أن نحزم بأن مؤلف الشيوغونيا كان رجلاً بسيطاً متمسكاً بالتقاليد ، متقيداً بالتراث الموروث ، وأنه ليس من أولئك الشعراء الذى يحلقون فى أجواء الأخيصة والأحلام ، ويرمون إلى إنشاء شعر براق يفتن ظاهره وتخلو أعماقه من المعارف ، وإنما هو من أولئك الذين ينعطفون بالفطرة نحو إرضاء الحقيقة بقدر المستطاع . ومن ثم نحن نشاهد الشاعر فى أغلب الأحيان يحتفى وراء المَحْصَى الذى لا يعنى إلا بالرتب والأرقام ، ومع ذلك هو لا يهوى فى أحبولة جفاف الحاسبين والمرقنين إلا نادراً . ومن أبرز مواهبه أنه يعرف كيف يطبع كل إله بالطابع الذى يميزه عن غيره تمييزاً دقيقاً ، والذى هو منتزع من

الأسطورة الخاصة بهذا الإله ، أو ينعته بنعت من تلك النعوت التقليدية التي لازمته منذ عهد الأناشيد البدائية .

على أن هذا ليس معناه أن شاعرنا كان مجذب الخيال ، وإنما هو على العكس من ذلك كان كثيراً ما يسلم نفسه إلى إلهاماته العالية فيصوغ بعض الأحداث الأسطورية صياغة تكاد ترتفع إلى صف جوهرتي هوميروس .

ومن الخصائص المميزة لمؤلف الثيوغونيا أنه يمتق النساء ويحتقرهن ويوجس منهن خيفة في كل خطوة من خطوات حياته ويتوقع من عشرتهن كل شر وسوء . ومن آيات ذلك أنه - بعد ما يروي لنا أسطورة بندوريه على النحو الذي هي عليه في قصيدة « الأعمال والأيام » - يعقب عليها بقوله :

« إن أرومة النساء المخصبة قد انحدرت من بندوريه ، نعم إن هذا العنصر المشئوم قد نشأ منها ! وإن النساء هن ذلك الوباء القاسى الذى يقيم مع الرجال ، النساء اللواتى لا يساهمن فى احتمال الفاقة ، بل هن يسرعن إلى المساهمة فى الثراء . . . على نحو ما تفعل ذكران النحل التى تَطْعَمُ من ثمار إنائها ولا تنتج إلا شراً . وبينما تكذب إناث النحل طول النهار وتكدح فى نشاط متواصل لتكوين أقراص الشهد ، نرى ذكرانها لا تكاد تبدى حراكاً ولا تغادر خلياتها المتوجة بالسُّقْف ، وكل عملها ينحصر فى أنها تزدرد فى بطونها إنتاج الغير ؛ على هذا النحو نفسه نكب زوس المَجْلَجِلُ فى الجو ، الرجال بوباء النساء . . . نعم إن المرء الذى يفر من الزواج وينجو بنفسه من سحابة صحبة النساء ، ويرفض أن يتخذ له زوجة ويصل إلى الشيخوخة المحتومة ، يعيش محروماً نعمة العناية الضرورية ، ولكن الذى يذعن لمصير الزواج ويظفر بامرأة مفعمة بالطهر والحكمة يجد الشر عنده معادلاً للخير سواء بسواء . أما الرجل الذى يصطدم بزوجة فاجرة فإنه يحمل فى قلبه مدى حياته أحزاناً لا تنتهى ^(١) » .

وبهذه المناسبة ينبغى أن نشير هنا إلى أن الأستاذ بيرون - وهو أحد الذين يعزون

(١) انظر رقم ٥٠٩ وما بعده من الثيوغونيا .

التيوغونيا إلى هز يودوس - يتخذ من هذا النص السالف برهاناً يؤيده في دعواه ، إذ يجزم بأن وحدة مؤلف « الأعمال والأيام » و « التيوغونيا » لا تبدو جلية في أى موقف آخر على النحو الذى تبدو عليه بإزاء تصوير المرأة في القصيدتين ، فكمما يرينا المؤلف صورتها في « التيوغونيا » قائمة بغیضة ، هو بطلعنا عليها في « الأعمال والأيام » رهية مزعجة ، إذ بعد أن يحدث شقيقه برسيس عن أسطورة بندوريه ، ينصح له في عدة مواضع أن يأخذ حذره من النساء اللواتي يشتهن ماله أكثر مما يأبهن لقلبه ، وهو ينصح له كذلك أن يحتاط أشد الاحتياط في زواجه فيقول :

« إختبر بانتباه قبل أن تختار حتى لا يجعلك زواجك أضحوكة لجيرانك ، فإذا لم يكن الرجل من كل ما يظفر به خيراً من زوجة فاضلة لم يكن عليه كذلك نكبة أفدح من زوجة فاسدة . . . إذ أن هذه الأخيرة تستطيع - بدون نار - أن تستهلك زوجها وتدفع به إلى الشيخوخة القاسية قبل الأوان^(١) » .

٤ - القيمة الأدبية لهذه القصيدة :

تتمتاز هذه القصيدة بلون من الجمال الجدى الذى ينفث أثره في النفوس بهيئة قاسية تطبعها بطابعه وتقهرها على إدامة التفكير فيه . وقد فطن الهيلين إلى هذا الجمال وأدركوا أسرارهم وخفائهم وعرفوا رموزهم ومراميهم ، ولكن الرومان قد غفلوا عنه وقصرت عقولهم العملية عن إدراكه ، وعجزت قلوبهم التي تعيش على الأرض وترتبط بالمادة عن فهمه أو استساغته . ويرى الأستاذ كروازيه أن المحدثين هم أقل من الرومان تذوقاً لهذا اللون من الجمال وأعجز منهم عن فهمه ، ولكنه يرى أن العدالة تتطلب منا أن نعترف بأن هذه الأسماء التي هي عندنا مملة أولاً دلالة لها ، وما كان يحوطها من خيال فائن ونظام بديع ، والنعوت التي كان الشعر يصوغها لأولئك الآلهة كانت تسحر بانسجامها تلك القلوب النقية النبيلة . وإليك نموذجاً من هذه النعوت الساحرة :

(١) انظر رقم ٦٩٩ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

« دُوريس ، و ، بانوپيه ، و ، غاليتيا الفاتنة ، و ، هيپوثويه ، العذراء المحببة ، و ، هيپوثويه ذات الذراعين الورديتين ، و ، كيمودوكيه التي تهدى الأمواج وتسكن صغير الهواء القوى فوق البحر المظلم بالسحب مع أختها « كياتوليجه » ومع « أنتفريتيه ^(١) » ذات القدمين الجميلتين ^(٢)

هناك داع آخر وجد عند الهيلين فحملهم على تذوق هذه الأساطير وغاب عنا ، فسلبتنا غيبته هذه اللذة ، وهو أن كل اسم من هذه الأسماء ، أو نعت من تلك النعوت ، أو اختصاص من هاتيك الاختصاصات المعزوة إلى الآلهة كان له عند كل فرد منهم ذكريات عذبة أو أليمة ، لا ارتباطه بمحادثة سعادة أو شقاء له أو لابنه أو لأبيه أو لجدته . وفوق ذلك فإنها كانت تشتمل على شرح كثير من أسرار الحياة الواقعية التي كثيراً ما يلتقي بها في شبابه وشيخوخته ، في منزله وحقله ، في متجره ومصنعه ، بين زوجه وأولاده ، بين أصدقائه وأعدائه ، بين رؤسائه ومرؤسيه التقاء عملياً جديراً بأن يكون له في هذا التذوق أثر فعال . بيد أن هذه الحلول التي كانت الأساطير تحملها من الماضي إلى الحاضر ، كانت تارة خفية غامضة ، وأخرى سهلة واضحة للعيان ، فكان الخاصة يدركون الأولى ويفتقنون بها ، والعامة ينهرون بالثانية ويمضون عليها بالتواجد ، وهاك نموذجاً من النوع الثاني :

« إن الليل قد أنجب الحظ السيئ والموت البشع ، وأنجب النوم وأسرة الأحلام ، هاهو ذا ما أنجبه الليل الخالك دون أن يجتمع بأحد ، وفي البطن ^(٣) الثاني أنجب للعالم الألم القاسي ، والهسبيريدس اللواتي يسهرن من وراء المحيط على حراسة التفاح الذهبي والأشجار التي تحملها ، والنيميسيس ^(٤) التي هي بلاء بني الإنسان ولدت أيضاً من الليل المشثوم ، وبعدها ولدت الخدعة والشهوة الحسية ، والشيخوخة المؤذية والشقاق (إيريس) ذات القلب القاسي ^(٥) .

(١) أنتفريتيه هي إحدى بنات البحر وستصير زوجة ليوسيدون فيما بعد .

(٢) انظر رقم ٢٥٠ وما بعده من الثيوغونيا .

(٣) ينبغي أن نلاحظ هنا أن الليل في اللغة الهيلينية مؤنث يحمل ويضع .

(٤) نيميسيس هي إلهة الانتقام .

(٥) انظر رقم ٢١١ وما بعده من الثيوغونيا .

فى الحق أن هذا الخيال يصور الحياة البشرية أبداع تصوير حين يتتبع الأمراض والآلام والشيخوخة ونكبات الحياة وبلاياها وشهواتها وشرورها ومفاسدها ، فيلنى أصولها كلها غامضة مبهمه ولا يجد أكثر غموضاً من الليل المظلم فيلحقها به ويجعله أصلاً لها ، فيكون ذلك منه بمثابة تصريح بأن ما تموج به الحياة من مظاهر وحوادث ، ونكبات وكوارث ، وأمراض وبلايا ، ومحن ورزايا ، تبدأ كلها فى سلاسل ، أطرافها الأولى تتصل بنى الإنسان ، وحلقاتها الأخيرة تغيب فى ظلام قائم لا يدرى أحد مداه ، ولا يدرك منتهاه .

بقيت هنا فكرة ينبغى أن نشير إليها قبل مغادرتنا هذا الفصل ، وهى احتواء الثيوغونيا على قبس صغير من أضواء المبادئ الفلسفية العالية التى سيكون لها فيما بعد شأن عظيم .

نعم إن شاعرنا لا يعرض فى قصيدته للفلسفة بمعناها الفنى من قريب أو من بعيد ، بل لعله لم يفكر فى ذلك ألبتة ، وإنما هذه المبادئ قد وجدت فيها بطريقة آلية اقتضتها طبيعة هذا النوع من الشعر ، وبيان ذلك أن المؤلف لما جمع كل الأساطير والخرافات المعروفة منذ أقدم العصور إلى العصر الذى عاش فيه ، ثم كدسها فى ذاكرته وسلط عليها عقله المتنازعة ، فجعلت توازن بينها وتصدر عليها حكمها ثم تنتقى أنفُسَها وأسمائها . وأخيراً تكل تلك المتناقضات إلى ذلك الخيال الخصب ليعمل فيها عمله ، فيثمر هذه الثمرة الملحوظة ، وهى ترتيب ما اختاره من ذلك الخليط وتنضيده والعمل على وضعه فى سلسلة متسقة الحلقات ليصل من وراء ذلك إلى الوحدة المطلقة . ولا ريب أن هذه فكرة فلسفية لا يستهان بها لأن الانجاء إلى الانساق والوحدة هو نفس السير نحو الغاية العليا المحددة التى رمت إليها الفلسفة منذ طليعتها الأولى .

وفوق ذلك فإنه يوجد وراء هذا الخضم الهائل من الأساطير هدف أساسى غير قابل للجحود ، وهو بدء الكون ، وإن كان قد قام حوله سياج سميك من هذا الشعر الخرافى

الذى لا يسمح لنظرات العقل أن تجتازها إلى الحكمة العالية الكامنة في داخله . وإذا سائرنا الفلاسفة هنا في تعبيراتهم استطعنا أن نقول إن في قصيدة الثيوغونيا فلسفة بالقوة تتحول إلى فلسفة بالفعل عندما تنهيا لها الظروف الملائمة منذ عهد ثاليس الملىتي ومن أتوا بعده من أعلام فلاسفة الهيلين .

(ب) قائمة الأبطال

لم تكن هذه القائمة تقل أهمية ولا تصغر في قيمتها الأدبية عن الثيوغونيا لأن مؤلفها قد عرف كيف يسمو بنفسه وبقرائه عن التعصبات الموضعية التي تنحط بصاحبها إلى التحيز ، فنظر إلى جميع الأبطال نظرة عادلة نزيهة ولم يسمح للعاطفة بأن تقود قلمه مرة واحدة ، فعرف كيف يجعل قصيدته في مأمن من العصبية التي ليس أعدى منها للعالم ، ولا أخطر على الحق ، ولا أشأم على التاريخ ، واستطاع بهذه الخطة أن يقهر قداماء النقاد ومحدثهم على احترامه .

غير أن هذه القصيدة - مع الأسف الشديد - قد فقد أكثرها ولم يبق منها غير حوالى مائة شذرة مبتورة لا تشبع نهم الباحث ، ولا تنفع غلة الناقد ، بل قل : إنها لا تمكن القارئ العادى من تتبع القائمة ولو تتبعها سطحياً .

يسير مؤلف هذه القصيدة على نفس النهج الذى سار عليه مؤلف الثيوغونيا فيسلك مع الأبطال خطة سالفه مع الآلهة ، فيتعقبهم أطفالاً وأزواجاً وآباء .

ومما يلتفت النظر في هذه القائمة تلك الخطوة الفائقة التي اختص المؤلف بها الجنس اللطيف في قصيدته إلى حد أن جعل القدماء يطلقون عليها اسم قائمة النساء . ولقد بلغت عناية هذه القائمة بالنساء من الشهرة مبلغاً حمل بوسنياس على أن يدعوها بالدمية لاشتمالها على الدميات البشريات . ويحدثنا مكسيموس التيرى - وهو من الذين يعزون هذه القائمة

إلى هز يودوس - أن مؤلفها قد عول على أن يسرد أرومات أبطاله مبتدئاً بأمهاتهم ، أى أنه كان يسلك فى أنسابه نهج السلسلة الأموية ، لأنها أكثر ثباتاً وأدخل فى باب اليقين من السلسلة الأبوية . ولعل حرصه على الحقيقة واضطرابه من خشية الوقوع فى الباطل أو الزيف هما اللذان حملاه على سلوك هذه الخطة .

يبدأ المؤلف قصيدته بالحديث عن بندوريه التى هى عنده زوجة برومئثيوس فيروى لنا أنها هى مبدأ العنصر الهيلينى إذ تنجب « دوكلئون » الذى ينجب بدوره « هيلين » الجد الأعلى للأمة الهيلينية كافة^(١) ، ولكن هذا الحديث لا يلبث أن ينقطع بانتهاء تلك الشذرة الضئيلة ، ولا يستطيع الباحث أن يعثر على صلة فى الشذرات الأخر بهيئة تطمئنه ، فلا يسمعه إلا أن يذعن للنتيجة الواقعية التى أحدثتها أيدي البلى بهذه القصيدة ، وأن يكتفى بإعلان الأسف على فقدائها وحرمان العالم الحديث نعمة محتوياتها النفيسة .

وإذا لم يكن لنا بد من أن نعقب على هذه القصيدة بشيء ، فقد نرى لازماً علينا أن نسجل هنا أن مؤلفها يشبه مؤلف الثيوغونيا فى السكف بالنظام والضبط وتوخى الدقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ومن مميزاته أيضاً أنه منعطف بفطرته نحو القصص الساطع الموجز كذلك اللون الفاتن الذى نلتقى به فى إحدى شذرات القائمة والذى يعنى بتصوير حملة أرجونوتيه^(٢) .

على أنه لا ينبغي أن يفوتنا قبل مغادرة هذه القصيدة أن نشير إلى أن أحد الأدباء فى عصر غير معروف بالضبط قد قسمها إلى أربعة أقسام ، بينما أن فريقاً آخر من المشتغلين بالأدب فى العصور القديمة قد أثبتوا أن القسم الرابع ليس منها ، وإنما هو قصيدة مستقلة ، وهى خاصة بإحصاء النساء البشريات اللواتى عشقهن الآلهة ، ولم يبق لنا مع الأسف منهن سوى خمس ،

(١) Frag . 1-3-7 , édition Rzach, Leipzig, 1902

(٢) حملة الأرجونوتيه هى تلك الحملة الشهيرة فى تاريخ الأساطير الهيلينية والى تألفت من خمسين بطلاً من أبطال الهيلين كيازون ، وهيركليس ، وكستور ، وپوليدكليس ، وأرفيئوس ، وتيلامون وأصراهم والى أبحرت على سفينة أرجو بقصد الاستيلاء على الجزة الذهبية .

وهن : (١) ألكمينيه «Alcmène» وهى زوجة أنفثريون ملك ثيبا ، وقد أحبها زوس وأنجب منها هيركليس . (٢) كرونيس Coronis ابنة الملك ملجىوس وقد عشقها أبولون وأنسل منها أسكليبيوس Asclépios إله الطب ، وقد ذكره العرب فى كتبهم الطبية كثيراً .



[الصورة رقم ٢٣ مأخوذة عن رسم بارز يرجع تاريخ صنعه إلى القرن الرابع قبل المسيح ويوجد الآن فى المتحف الوطنى بأثينا ، وهى تمثل موكباً من الضارعات متجهاً إلى معبد أسكليبيوس إله الطب ، ويرى فى الصورة كذلك أسكليبيوس جالساً فى معبده وعلى مقربة منه ابنته هجيبه [إلهة الصحة]

(٣) أنتيويه Antiopè وهى ابنة نكتيوس ملك ثيبا ، وقد أغرم بها زوس .
(٤) مكيونيكيه ، وقد تدله فى غرامها بوسيدون . (٥) كيرينيه Kirénè وقد وله فى حبها أبولون ونقلها إلى ليا ، وباسمها سميت مدينة كيرينا التى نطقها العرب قورينا ونسب إليها الفلاسفة القورينائيون .

(ح) ترس هيركليس

تعتبر هذه القصيدة ضمن القصائد التى شغلت الأدباء فى عصرها ، ولكن ذلك لم يكن لقيمتها الأدبية ، بل لشهرة عنوانها وأهمية الموضوع الذى غرست له ، وعدد أبياتها

أربعائة وثمانون بيتاً ، وقد بقيت كلها ، ولكن النقاد المحدثين يميلون إلى أن الأربعة والخمسين بيتاً الأول منها هي لمؤلف قائمة النساء البشريات اللواتي أحبهن الآلهة ، وهي القائمة التي أسلفنا الحديث عنها ، والتي ألحقها البعض بقائمة الأبطال وعزاها إلى هزودوس .

وأيا ما كان فإن هذه المقطوعة الأولى من ترس هيركليس هي التي تحوى - كما في القسم الرابع من القائمة العامة - أسطورة « كلف زوس بألكمينيه » إذ تحدثنا كيف أن أنفثريون وزوجته ألكمينيه تضطرها ظروف خاصة إلى الالتجاء إلى ثيبا حيث يندلع غرام زوس بهذه الزوجة الفتاة وكيف يرتحل زوجها ثم يعود وكيف تلد التوأمين هيركليس من زوس ، وشقيقه أرستئوس من زوجها أنفثريون .

وعلى أثر انتهاء هذه الأسطورة بحس القارئ أن الأسلوب قد تغير فجأة فهوى إلى الحضيض ، إذ ينتقل بنا المؤلف إلى إنشاء ضئيل القيمة منحط المستوى ، والموضوع الظاهري الذي اتخذ هذا الشاعر لإنشائه ، هو معركة هيركليس وركنوس بن أريس الذي عطل القرابين المعدة لمعبد أبولون في ذليفه ، ولكن المؤلف كان يرمى في الحق إلى وضع وصف لترس هيركليس يشبه وصف الإلياذة لترس أخيلوس ، فجاء ذلك الوصف محاكاة سخيفة لا يمكن تشبيهها بالأولى إلا لبيان دمايتها وقبحها إلى جانب حسن وصف هوميروس ودقته .

(د) قصائد مختلفة

ظهرت في هذا العصر عدة قصائد تاريخية مختلفة لا يعرف مؤلفوها ، فنسب القدماء بعضها إلى هزودوس ومن أشهرها قصيدة عنوانها :

المياميسية

وهي نسبة إلى مياميوس الإلهي الذي هو بطلها الأساسي وإن كنا نجد فيها إلى

جانب اسمه أسماء كثيرين من أبطال العصور القديمة كأسماء العرافين الثلاثة : كلخاس ، وتيرسياس ، وأمفيلوخوس .

ويحدثنا بعض القدماء أن من بين محتويات هذه القصيدة قصة تصور لنا زوس ، وهيريه يستلهمان أنباء الأقدار من تيرسياس العراف . ولا ريب أن هذه آية من آيات انحطاط العقلية وإسفاف مستوى فهم الأساطير في ذلك العهد ، وإلا فكيف ينحط زوس إلى حد الجهل بالأقدار واستلهاهما من أحد الأناسى العرافين الذين هم صنعة يده ، والذين ليس ما عندهم من عرفان إلا بصيصاً من وحى ابنه أبولون .

غير أن هذا السخف لا يمنعنا من أن نعلن أن في هذه القصيدة أبياتاً لا تخلو من حسن ورشاقة كتلك الأبيات التي يناجى فيها تيرسياس زوس متضجراً من طول حياته ومن معرفته بالأقدار فيقول :

« زوس أيها الوالد والمليك ! لماذا لم تمنحني حياة أقصر من حياتي ؟ ولماذا لم تعطني نصيباً من الجهل الإنساني ؟ ليست هذه حظوة تلك التي حبوتني بها بمنحك إياي هذه الحياة الطويلة التي بلغت سبعة أجيال من أجيال الفانين ^(١) .

نزول ثيسوس إلى الجحيم

ومن هذه القصائد أيضاً قصيدة نزول ثيسوس عند « هاديس » التي يروى فيها مؤلفها كيف نزل ثيسوس إلى الجحيم ، ثم يقدم إلينا قائمة يسرد لنا فيها أسماء مشاهير موتى الهيلين وشيثاً عن أنسابهم وأسرهم ، فيذكرنا بالقائمة العظمى التي أسلفنا لك أنها فقدت .

(1) M. Croiset , Histoire de la Littérature grecque, tome, p.572 .

هناك كثير من القصائد الأخرى ظهرت في هذا العهد بقي بعضها كاملاً ، وفقد بعضها الآخر فلم يبق منه إلا عناوينه أو شذرات ضئيلة منتثرة غير كافية لإعطائنا فكرة واضحة عنها وعن مؤلفيها ، ولكن الذي نستطيع أن نقرره في هذا الشأن بوجه عام هو أن هذه القصائد كلها كانت ضئيلة القيمة ، منحطة المستوى لا تؤذن بمواهب مؤلفيها ، ولا تشعر القارئ بأنهم من الممتازين . ولهذا لم يكد التاريخ يخطو في طريق الرقي خطاه الواسعة حتى سدل على هذه المنتجات الضعيفة ستار النسيان .